

قراءة في مخطوط

معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار

لمحمد بن علي الشريف الزواوي الشلاطي

إعداد

زوهري وليد

تتحد البنية الثقافية للمجتمع البجاوي بتلك الأصول الأمازيغية والتوجه العربي الإسلامي ، وقد أعطى هذا التزاوج بين الثقافة الأمازيغية والثقافة العربية الإسلامية نتائج ساهمت في ارتفاع هذا المجتمع، وتأسيس الدولة الحمادية وإرساء قواعدها، كما ساهمت في وجود علماء في الفقه ومبادئ علم الكلام، ناظروا فقهاء العرب في قواعد الأصول وتفاريع الفقه والعلوم¹.

وقد كان توجه الثقافة الحمادية عربياً، ينهل من المضامين الإسلامية فالتاريخ يخبرنا أن اللغة العربية ظلت لقرون طويلة محل احترام وتقديس بين سكان القبائل ، واهتمامهم بها نابع من اقتناعهم بالإسلام دينا دون تعصب ولا تطرف²، فانكبوا على دراسة نحوها وصرفها وبلاغتها

3

وازدهرت بذلك الثقافة الدينية والفقهية والأدبية، ونشطت الحركة التأليفية ، حيث احتضنت هذه المنطقة الجرم الغفير من الشخصيات العلمية اللامعة والذين يصعب عددهم ويعسر حصرهم، إذ اجتهدوا في مختلف العلوم وكان فيهم الأدباء الذين أتقنوا العربية وألفوا فيها وترجموا علومها من العربية إلى الأمازيغية، ولقنوا الدروس باللسانين العربي والأمازيغي.

ولعلّ من العوامل المساعدة في المحافظة على هذه المكانة والقيمة، الأثر الثقافي الذي خلفه

زحف القبائل العربية على المغرب، فقد «أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال في اللسان البربري الذي كان طاغياً على اللسان العربي في الأرياف والمدن أيضاً، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاحتكاك»⁴.

ومن الظروف التي أثرت هذا التوجه، أن اللغة العربية أصبحت لغة عالمية، تساهم في نقل المعارف والعلوم، فقد أخذها الحماديون لغة لدولتهم، وإذا كان الأمر كذلك، فإننا لا نعدم أن اللغة الأمازيغية كانت لغة عالمية مساعدة عن طريق نقلها للعادات والتقاليد، فقد ظلت هذه اللغة الناقل لتراث شفوي متوارث بين أهل بلاد القبائل، إذ تملك أسرة اولحبيب رصيда ضخما من الأشعار والقصص والأمثال والخواطر باللغة الأمازيغية نقلته السيدة أدادة آيت حمودة زوجة المهدي اولحبيب لابنتها زينب⁵، فمنطقة القبائل تزخر بتراث شفهي ضخم - أشعار مغناة - لا يُعرف مؤلفوه إلا نادرا، وتعتبر المرأة الأمازيغية أهم حلقة في التواصل بين الأجيال وتحقيق التراكم الثقافي الذي يرسم هوية وانتماء وأصالة شعب القبائل، كانت هذه الأشعار والأغاني السبيل الوحيد للتعبير عن خلجات نفوسهم وما تجيش به عوطفهم⁶ فقد ظل الشعر من أغلى أنواع الفنون التعبيرية، حيث يلقب الشعراء بالحكماء، إحداذن ن واول، وكثيرا ما ترافق هذه الأشعار، أنغام ورقصات شعبية، كالأشعار المرتبطة بالأعياد الدينية أو مناسبات الأفراح والأمداح النبوية وغيرها، وبذلك تم الحفاظ على التوازن الداخلي لإنسان المجتمع القبائلي.

مع العلم أن تفاعل ثقافتين قد يؤدي إلى ثقافة مهيمنة وثقافة مهيمنة خاصة وانه ليست لدينا أدلة كثيرة عن واقع اللغة المتداولة بين سكان منطقة القبائل في تعاملاتهم اليومية خلال العهود السابقة ولكنها في الغالب ظلت اللغة الأمازيغية الماثورة نظرا لاستمراريتها كلغة الخطاب اليومي بين السكان وانطلاقا من الأشعار والأمثال والحكم والأغاني المتداولة إلا أن الأكيد أن اللغة العربية ظلت لقرون الطويلة لغة التداول الرسمي بين سكان منطقة القبائل في مراسلاتهم وخطبهم المنبرية ...

من العناصر المكونة لبنية الثقافية الحمادية، وجود مذهب الإمام مالك وانتشاره من دون المذاهب الإسلامية الأخرى، مما أدى إلى توحيد التوجه الفكري لأغلب سكان المغرب العربي عامة، والحماديين بوجه خاص، فسلمت بذلك دولة بني حماد من ذلك النزاع المذهبي الذي كان له أثر سلبي في المشرق العربي، وفي بعض الأحيان كان مدمراً، حيث أفضى إلى نزاعات هدامة من الناحية السياسية، وإن كانت مفيدة من الناحية الفكرية والأدبية، لأنها أسهمت في بناء الذات وتشكلها المعرفي. ولا يمكن تجاهل «زحف مذهب مالك بدءاً من مدرسة القيروان، انتشاراً في القسم الغربي للعالم الإسلامي كله، بما فيه الأندلس، وعبره إلى غرب إفريقية حيث لا يزال المذهب الغالب في هذه البلاد»⁷

إنّ هذا التنوع الثقافي سمة من سمات المكوّن الثقافي للحماديين وهو الذي أدى بهم إلى رعاية الثقافة والمثقفين والمفكرين فيجزلون لهم العطاء، ويجودونهم بالهدايا والأموال، فقد «كان الناصر بن علناس أطول الملوك الحماديين باعاً في هذا المضمار، فقد كان يؤمه الأدباء ويقصده الشعراء، فيغدق صلاته عليهم»⁸، كما كان يفعل أغلب الملوك الحماديين فيجزلون العطاء للعلماء و يشجعون الأدباء ويحفزونهم على الإبداع المتميز، فكان المعز بن باديس "مكرماً لأهل العلم كثير العطاء لهم كريماً، وهب مرة مائة ألف دينار للمستنصر الزناتي، وكان عنده، وقد جاءه المال فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه ثم وهبه له، فقبل له لم أمرت بإخراجه من أوعيته. قال لئلا يقال لو رآه ما سمحت نفسه به. وكان له شعر حسن»⁹.

لقد أسهمت هذه البنية الثقافية في جعل العاصمة الحمادية مركزاً ثقافياً يعجّ بالمختصين في كل الفروع، وخاصة رجال الدين والفقه والعلوم، ويشهد على ذلك أبو علي المسيلي بقوله «أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتياً ما منهم من يعرفني، وإذا كان المفتون تسعين، فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن يدركه.. لقد كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يراد»¹⁰.

يمكن أن نقسم تطور العلوم في بجاية إلى مرحلتين حاسمتين المرحلة الأولى هي حقبة العصور الوسطى حيث عرفت العلوم ومنها علم الفلك تطوراً كبيراً، فقف استطاع علماءها تحديد مواقيت الصلاة والشعائر والأعياد الدينية، والاعتماد على التقويم القمري على الرغم من صعوباته في تحديد التواريخ، وفي الوقت نفسه اهتموا بالتقويم الشمسي في الأمصار الزراعية التي دانت لهم من أجل تحديد أوقات جباية الجزية والضرائب والزكاة وفقاً لمواسم الحصاد. والمحصلة أنهم استطاعوا تطوير علم حساب المثلثات وتصنيع آلات فلكية لتعيين المواقيت والاتجاهات، في معرفة الكسوف والخسوف ومواقيت طلوع الكواكب والعديد من الجداول الفلكية. ومن أشهر علماء المنطقة في تلك الفترة محمد بن إبراهيم الأوسي الأندلسي المعروف بابن الرقام¹¹ (ت715هـ) رياضي وفلكي متفنن استقدمه ثاني ملوك بني نصر إلى بجاية له تآليف مفيدة وسليمان بن يوسف الحسناوي البجاوي¹² ت877هـ عالم في الفرائض والحساب والمنطق، له تصانيف عديدة وعلي بن موسى التادلي الهيدور البجاوي¹³ (ت816) له شرح على تلخيص لابن البنا ومن أشهر العلماء الأوربيين الذين قدموا إلى بجاية من أجل تحصيل العلوم ليوناردو فيويانتشي¹⁴ (1170-1240).

وقد وصل نبوغ البجاويين بالعلوم أن استحدثوا خلال القرن الثاني عشر الميلادي الموافق للقرن السادس الهجري نظريات جديدة في الكسوف انتقلت فيما يعد إلى مختلف بقاع العالم

وخاصة بلاد الاندلس¹⁵ ، أما المرحلة الثانية فتبدأ مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي حيث تقلص دور المراكز العلمية الكبرى التي ازدهرت خلال العهود السابقة ، فتحوّلت الحركة العلمية إلى الزوايا ، ولعل نصيب منطقة القبائل الكبرى والصغرى من زوايا المعارف والعلوم والمكاتب عظيم القدر ، خصوصا بعد احتلال الإسبان لمدينة بجاية¹⁶ ، وخروج الكثيرين من أبناء المدينة إلى الجبال المحيطة بها على أمل المراقبة والعودة فقاموا بتأسيس الزوايا في عديد المناطق مثل زاوية أقبو وهي «أم الزوايا في القرون الثلاثة الأخيرة، ومنها انتشر الفقه والنحو والفلك والحساب في بلاد زاوية وما ولاها إلى قسنطينة شرقا، والأغواط جنوبا ، والمدينة شرقا»¹⁷ ، وزاوية شلاطة على مشارف أقبو ببجاية¹⁸ وتنسب لسيدي بن علي الشريف وذريته وغيرها. وقد بلغ عدد الزوايا بمنطقة القبائل وحدها حوالي ستين زاوية¹⁹ .

تناول العلماء خلال القرن الثامن عشر الميلادي العديد من القضايا الفلكية ذات صلة ببيئتهم الزمانية والمكانية مثل السنة القمرية ، مواقيت طلوع وغروب الشمس، ولعل أبرز علماء المنطقة خلال هذا القرن محمد بن علي الشريف الشلاطي الزواوي عالم وصوفي ونحوي من بلاد زاوية ، له تأليف عديدة من بينها معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار الذي نتطرق إليه في هذا العرض:

نسخ المخطوط:

-النسخة الأولى: عثرت عليها بالمكتبة الوطنية الجزائرية، بمجموع تحمل رقم 1/2694 وهي نسخة تامة جيدة في حوالي 59 قطعة وحوالي 27 سطرا في الورقة والواحدة.

-الناسخ: محمد البجاوي

-سنة النسخ:يوم الخميس السادس من ماي 1847م

-نهاية المخطوط بفائدة للناسخ من ثلاثة عشر سطرا، تحدث فيها عن طريقة معرفة اليوم في ترتيب الشهور الشمسية ، أسماء الشهور القمرية وبعض القضايا الأخرى .

-الخط :مغربي حسن

-النسخة الثانية:

عُثِرَ عليها بالمكتبة الوطنية أيضا بمجموع تحمل رقم 1/2678 وهي نسخة تامة ، ولكنها سيئة وأطراف العديد من أوراقها ممزقة وبها خروم كثيرة ، تقع في حوالي 56 قطعة ، عدد الأسطر في كل ورقة حوالي 27 إلى 29

-الناسخ: غير مذكور

-سنة النسخ: ضحوة يوم الجمعة 27 من ربيع الأخير عام 1194هـ

-في نهاية المخطوط فائدة تتألف من 12 سطرا

-الخط مغربي حسن

حياته وبيئته:

هو محمد بن علي الشريف الزواوي الشلاطي²⁰ وقد ولد العلامة في منتصف القرن الثامن عشر ، وقد عرف نفسه في بداية الكتاب فيقول:

«يقول العبد الفقير إلى من بيده العز والتشريف محمد بن علي المكنى بابن علي الشريف الزواوي إقليما وبلدا وشلاطة منشأ ومولدا قرية قريبة من واد بجاية»²¹

ينتمي محمد بن علي الشريف الشلاطي إلى أسرة محافظة متدينة يرتفع نسبها إلى العلامة عبد السلام بن مشيش²² عائلة محاربة لها باع طويل في مجابهة المستعمر وقد سبل أبؤها أنفسهم لمحاربة الفرنسيين²³ قدمت من منطقة الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى²⁴ استوطنت عند قدومها قرية موسى اوعلى شمال شلاطة، حملت لواء الصوفية لأكثر من مائة وخمسين سنة ،زاول دراساته الأولى بمدرسة المختصر «فحضرت مدرسة المختصر فيسر علي فهمه ،وانقشعت سحائب الأوهام»²⁵ ثم واصل الشيخ دراساته بأمكنة غير معلومة ولعل زاوية "تاسلينت" كانت إحداها²⁶

محمد بن علي شيخ الزاوية الشلاطية، ذائعة الصيت ، عالية المقام ، يقصدها المتعلمين من كل فج عميق ،حتى شاع بين أهل المنطقة قولهم «من لم يقرأ القرآن في شلاطة ولم يتعلم

الفقه في تاسلينت، ولو قرأ وتعلم في غيرهما يعتبر عند المحبين ناقص السر ، فإذا أراد الناس تعظيم طالب أو فقيه ،فينسبوه إلى إحدى الزاويتين»²⁷

وقد دون الرياضي الفرنسي "أوجين أودولف" بعض المخطوطات لابن علي الشريف الشلاطي²⁸ ولكن لسوء الحظ لم يعثر عليها لحد الآن ،وقد ذكر الشلاطي بعض مؤلفاته وقال أنه قد دونها في ألواح مخافة ضياعها «دبرت ذلك وزبرته في عدة ألواح وأوراق متفرقات، انتقيتها من أنواع الفنون في أوقات وأزمان مختلفات، في جميع تلك الأنواع بعضها إلى بعض، بما خشيت عليها الضياع بعد تعب شديد في تحصيلها في تلك الرقاع منها: في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء ، الملوك والعرفاء،المواعظ والأذكار وحكايات الصالحين الأبرار ،في أوقات الليل والنهار ،تفصيل الأزمان وتصاريح الأفكار ، التوسم والاستدلال على محاسن أخلاق النساء والرجال ومنها في تفسير الغريب للمبتدئ بالتقريب

«²⁹

كان محمد بن علي الشريف شخصية محبوبة ومبجلة بين سكان البلاد لعلمه ونسله الشريف، وهو القائم على زاوية شلاطة العامرة ، فقد افصح في مطلع المخطوط عدم موافات الحال للتأليف مع كثرة الزائرين من الرجال والنساء ، كما عبر الشلاطي في كتابه عن المعاناة التي تعرض لها في صغره عقب وفاة والده، فاشتكى من ظلم الناس وجورهم، والظاهر من كلامه أنه كان الذكر الوحيد بين أخواته الفتيات فكان بذلك معيل الأسرة وهذا ربما سبب عزوفه عن خوض الأسفار الطويلة لتلقي العلوم يقول الشلاطي:

«توفي والدي وبالعلم حافل كارع فيه، وناهل وزاهد دنياه ، وبعلمه عامل، ومالنا سوى الله كافل، وأنا وبنات له وأمنا تختنق في غموم كبار، وما الناس الأقارب إلا عقارب، ولا في الأبعاد مواد ولا مساعد ،..فطلبت على باب المولى الكريم سايلا فتح باب إلى صوب الصواب، وفهم ما أقياسيه وما أعانيه، وتحقيق مداركي ومبانيه، حتى تبدو لنا لطايف اللباب، وأسرار من الفيض العباب ، من غير تعب ولا أكدار ولا نصب ولا أسفار»³⁰

ومن الفوائد التي تستشفها من خلال هذا الكتاب بعض الأحداث التاريخية في عصر المؤلف حيث انتشرت مظاهر التخلف والفقر والجهل والكساد الثقافي والعلمي ، وقد اتضحت معالمه من خلال سكان بوادي بلاد زواوة ، وكما نعلم أن نسبة سكان الريف كانت تمثل خلال العهد التركي حوالي التسعين في المائة من السكان الجزائري وكان أغلبهم يقتات من فلاحية الأراضي الزراعية الضيقة³¹ - نظرا لتضاريس بلاد القبائل - يسرد الشلاطي «انتشر الجهل وعظم شره، وهاجت فيه فتن متمحلة، وترادحت محن متطاولة، ولم يبق من الدنيا إلا كنان العقرب .. والمؤمن فيه كقابض على جمرة محمات، أو كماش على مزاحف الحيات، فإن لله وإن إليه راجعون على قلة العلم وأهله، حتى صار مثلي من أهل التأليف مع جهله ، ويقلل إذا غاب صرصر البقرات والعقبان صرخت الديوك في كل وقت وآن .. فمن لم يكن العسن في أركانه فليكن على طرف ، فهذا زمان السكوت ولزوم البيوت ، والرضى باليسير من القوت .. وكثر الحاسدون يحملان الإنسان على الكتمان، وطلب الخمول في كل مكان»³²

منابع ثقافة محمد بن علي الشلاطي : من خلال قراءتنا لكتاب الاستبصار ندرك أن ثمة مجموعة من العلماء أثرت في ثقافة الشيخ الشلاطي تأثيرا مباشرا أو غير مباشر، لدرجة أن الشيخ قد تحول في الكثير من فصول الكتاب إلى مردد لآراء هؤلاء العلماء .

كان والد محمد بن علي المتوفي حوالي سنة 1758م³³ فلكي شهير له العديد من النظريات والجداول الفلكية والدراسات المتخصصة ، مثل تقيداته على زلزال القبائل³⁴ عام 1752م وقد أكد الشلاطي في كتابه الاستبصار أن والده كان ملهمه الأول، وقد استند إلى نظرياته في الكثير من القضايا .

كما استند محمد بن علي الشريف الشلاطي إلى العديد من المؤلفات العلمية والتي كانت بمثابة اللبنة الأساسية لتشكيل ثقافته . ولعل أهمها المقنع في مختصر أبي مفرع وشرحه

المسمى الممتع في شرح المقنع ومختصره المطلع على مسائل المقنع للعالم الصالح أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى السوسى المرغتي³⁵ وقد كان عالما جليلا عرفت مؤلفاته انتشارا واسعا خاصة بعد وفاته، وقد ذكر الشلاطي في مقدمة كتابه أن مؤلفه هذا يفتح مغلق السوسى ويوضح ما أهمله ويبين ما أشار إليه ، وذكر ما أغفله ، وقد نقل الشلاطي كثيرا من النظريات الواردة في شرح على السراج -منظومة في الفلك للأخضري- ومفيد المحتاج لسحنون بن عثمان بن أحمد الونشريسي³⁶

كما استفاد أيضا من كتب محمد بن يوسف السنوسى التلمساني³⁷ وخاصة كتابه شرح أرجوزة الحباك في الاسطرلاب

وقد كان لمؤلفات الجادري عبد الرحمن بن محمد المديوني³⁸ تأثير كبيرا على تطور العلوم في المنطقة، وأشهر مؤلفاته تنبيه الأنام على ما يحدث في أيام العام وروضة الأزهار في وقت الليل والنهار

السراج في علم الفلك لعبد الرحمن الأخضري³⁹ وشرحه المسمى المحتاج في شرح معاني السراج لمحمد الصالح الرحموني الزواوي⁴⁰

وأيضا اعتمد الشيخ على كتاب شرح اليواقيت لعلي بن محمد الدادسي-ت 1077- 1666م⁴¹ وأحمد بن بلقاسم الزواوي الذي كان حيا سنة 1105هـ⁴²

كما نقل من بعض المؤلفات الصوفية مثل كتاب قوت القلوب لأبي طاهر المكي وكتب ابن العربي .

كتاب الشلاطي:

معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار، هو كتاب في التنجيم والفلك ألفه صاحبه عام 1192هـ⁴³ وكان هدفه من تأليفه توضيح معاني المقنع للسوسى بطلب من طلبته ومحبيه حيث يقول«ثم سألتني جماعة من الطلبة الأعيان أبان الله لي ولهم معالم البيان

والتبيان، وضع جملة مختصرة مع الإفصاح.. فلما تكرر سألناهم سرا وجهرا ، وكلفوني من هذا الأمر أمرا ، وأنا متوقف برهة من ذلك متردد في ترقب خطر تلك المسالك مستمد العون من الله مستمتح، وبالاستخارة فارع مستفتح، حتى قضى كثير منهم نحبه وسار إلى رحمة ربه، رقت نفسي لمن بقي منهم لطول الانتظار طامحين لفظ تلك الأوطار .. فبعون الله تعالى بذلت جهدا في تقريب مأسأله وجعلت من ضعفي قوة في إسعاف مأسأله .. وسميته معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار فهو بحمد الله كتاب جامع وبما يحتاج إليه لمبتدئ كفيل نافع يتبصر به مبتدئ مثلي ، به كثير من الشكل والمبهم ينجلي، وينفتح مغلق السوسي ، ويتضح ما أهمله ، وبينت ما أشار إليه وذكرت ما أغفله»⁴⁴

وقد رتب فصوله على نحو خاص استغنى عن عنوانة الفصول ويقول الشيخ عن مؤلفه: «ورتبته على نمط عجب غريب ، ومنهج حسن غريب، يحتوي على فوايد مهمة وضروب من المنافع جملة، من معرفة أوقات الصلاة والأذكار وتحديد القبلة لجميع الأقطار، والتفكر في عجائب العلويات وغرائب السفليات، ومعرفة العام العربي وشهوره وبيان مهماته وأيامه وكبسه ومدخل السنة العجمية وكبسه واسمها وذكرت ما كان في كل شهر أو في يوم معين من أيامها وذكرت المطالع والمضارب بالقول الشافي وأوضحتها بالمثل الكافي ومجاري الشمس وما يعتربها من الشرق والسقوط والوبال وزمان الحر والقر وما بينهما من الاعتدال وكذا ساير الدرر وترحيلها في البروج والمنازل وأشير إلى الأرياح والبروق والرعد والزلازل وانقلاب الشمس في وقتها هذا مع الاستواء ومذهب العرب في الأمطار والأنواء»⁴⁵

يعتبر القرن الثاني عشر الهجري من العصور المضيئة لبلاد الجزائر على الصعيد الأدبي والروحي، ففي هذا القرن ظلت أنوار الثقافة الدينية والفقهية ساطعة ، حيث احتضن هذا القرن الجهم الغفير من الشخصيات العلمية اللامعة والذين يصعب عددهم ويعسر حصرهم وإن كانت نتاجاتهم لا تضاهي تلك التي ظهرت خلال الحقب الأولى من عصر النهضة الإسلامية، سواءاً من حيث قيمتها المعرفية أو الأدبية.

وقد انتشرت في هذه المرحلة الأفكار الصوفية و الطريقة فاستولت على عقول المثقفين، وقد قوي هذا الاتجاه برعاية الدولة العثمانية، نتيجة ضعف المسلمين والاحتياح الغربي لبلادهم مما جعل العلماء يحاولون بث الروح الدينية في نفوس المسلمين، وإيقاظ شعلتها من جديد ليحافظوا بذلك على عقائدهم وتراثهم، وفي المقابل فإن هذا العهد شهد ركودا حادا في مجال الابتكارات العلمية والتقنية، وما كان متداولاً بينهم من المصنفات العلمية كان مجرد تقليد للسابقين، فكثرت الدجل والشعوذة والخرافات وهذا ما جعل الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال تلك الفترة يتهمون علمائها بممارسة الدجل والسحر⁴⁶ ، فخلال عصر الشلاطي كانت شمس الحضارة العلمية تثير أوروبا فقد شهد علم الفلك الأوربي فقرات نوعية ، بعدتم فصل علم الفلك عن علم التنجيم وظهر جملة من العلماء الأوروبيين الذين أسسوا لعلم الفلك الحديث أبرزهم اسحاق نيوتن (1643-1727م) الذي وضع قانونا للجاذبية ووضع تفسيراً لحركة الكواكب والمذنبات، أي: أن كل جسم يجذب جسماً آخر تبعاً لحجمه وكتلته كما طور التلسكوب المحوري عام 1704م و اكتشف ألوان الطيف التي أدت إلى ثورة في التحليل الطيفي للضوء خلال القرن التاسع عشر والعشرين⁴⁷ ، وانطلاقاً من نظرية الجاذبية تأكد الفلكي الألماني ويليام هارशल (1738-1822) ، عام 1781م وجود كوكب أورانوس⁴⁸ في حين كان العرب يعتقدون لقرون طويلة وجود ستة كوكب فقط ومنهم الشيخ الشلاطي نفسه ، كما اكتشف الرياضي الفرنسي بيير سيمون دي بلاص (1749-1827) نظرية السديم ، وافترض أن تكون المجموعة الشمسية قد تكونت من سحابة غازية سماها سديماً⁴⁹ .

كتاب معالم الاستبصار من المؤلفات التي تمزج علم التنجيم بالفلك أي أن التمييز الحقيقي بين علم الفلك وعلم التنجيم لم يفصل فيه الشيخ الشلاطي ، فحركته شأنه شأن سابقه من العلماء المسلمين، تلك القناعة الميتافيزيقية بأن للسماء سيطرة مطلقة على

الأرض، إذ كان يؤمن أن الطبيعة واحدة وأن الطاقة التي تحرك كل ما فيها واحدة؛ وبالتالي، فكل حركة في هذا الكون لها تأثيرها وتبعاتها عليه وعلى محيطه.

فبدأ بتعريف علم التنجيم مستندا إلى بعض الأقوال المأثورة والأحاديث النبوية والأشعار العربية مثل أشعار امرؤ القيس وعمرو بن كلثوم مايدل على ثقافته الدينية والأدبية الواسعة، ثم عرف علم المواقيت وبين شرفه وأهميته بالنسبة للمسلمين ، ثم عرف العام العربي وبين أبرز الأحداث التاريخية التي حدثت في كل شهر من شهوره. ويشرح السنة القمرية أنها المدة التي يقطعها القمر بالبروج الإثنا عشر، وكل نصف سدس من ذلك يسمى شهرا وأما أيام السنة الكبيسة فهي 355 يوما بأن يزداد يوم في آخر ذو الحجة، وأما الشهر فقد حدده الشلاطي بدقة متناهية وهو 29 يوما و31 دقيقة وخمسون ثانية ويقولون 56 ثانية و5 ثوانث من يوم تقريبا فإذا ضرب ذلك في شهور العام كانت النتيجة 354 يوما وخمس يوم وسدسه وذلك 22 جزءا من 60 جزء.

يرى الشلاطي أن الشمس أكبر من الأرض بأضعاف إلا أنه لم يحددها كما فعل الونشريسي في "مفيد المحتاج" إذ قال أن الشمس أكبر من الأرض 169 مرة في حين أن الأرض أكبر من القمر ب8 مرات

يتحدث الشلاطي عن شرف شهر ربيع الأول ويوم مولد النبي الكريم، وأن مولده صلى الله عليه وسلم كانت في أعدل شهور السنة 20 من أبريل، ثم أسهب في الحديث عن بعض الآراء الصوفية مثل تقدم خلق النور المحمدي عن العرش والكرسي ، ثم بين فضل شهر عاشوراء وأهم الأحداث التاريخية التي وقعت فيه، ثم تحدث عن السنة الشمسية واضعا جدولا يحدد السنة الكبيسة والإزدلافية للقرن الثالث عشر الهجري.

وعن حديثه عن تحديد أوقات الصلاة اكتفى الشلاطي بأن طبق ما ورد في كتاب "مفيد المحتاج" عن تحديد الساعات الزمانية بالأقدام على بعض مدن الجزائر.

تطرق الشلاطي إلى كيفية حساب دخول البروج إلى الشهور الرومية وطريقة حساب المواضع الخمسة المتحيرة وتسمى الخنس ثم تطرق إلى حادثة ظهور مذهب بذييل ضخم في فلك برج الثور عام 1769م⁵⁰

وفي سياق حديثه عن السنة الأعجمية فقد أورد الشلاطي قصيدة للشيخ أبي مروان عن اختلاف أحوال الزرع والناس بحسب يوم دخولها فإذا دخلت بيوم الأحد كثر الغيث والخصب وكان الخريف كثير الريح وهي في المجمل آراء تفتقر إلى العلمية ثم أدرج رأي "ابن البناء المراكشي" في أحوال العام بحسب ما يحدث في كل يوم من أيام كانون الثاني الواحدة والثلاثين ثم انتهى إلى أيام فبراير إلى أن أتى على كل أيام شهور السنة الرومية، وهي في المجمل آراء تبصرية مما سيحدث انطلاقا من مواقع النجوم.

ثم أتى أخيرا إلى تحديد موقع القبلة ووضع جدولا يحدد اتجاهها لكل بلاد الإسلام المعروفة وذلك بالاستناد إلى "ابن البناء" و"الدادسي" و "شهاب الدين القرفي الصنهاجي"، وقد أكد هذا الأخير أن ثمة ستة طرق لتحديد اتجاه القبلة وهذا بناء على الموقع والفصل والقمر والشمس ، وختم كتابه بملخص لقصيدة شيخه "محمد عبد الملك الزواوي" حيث ذكر فيها قبلة العديد من المدن الجزائرية مثل بسكرة تلمسان بجاية وغيرها ، وهذا في حال عدم وجود المساجد فإن وجدت فقد أيد الشلاطي من سبقوه من أن تتبع هذه التحديدات أمر غير جائز لما فيه من زرع للشقاق .

اكتسب مؤلف محمد بن علي الشريف الشلاطي المسمى معالم الاستبصار شهرة واسعة في عصره ،⁵¹ فقد أظهرت بعض الوثائق المخطوطة أن الكتاب كان رائجا بين علماء بلاد زواوة وما جاورها بل إن أحد العلماء قام بوضع حاشية للمؤلف ، فبزاوية الشيخ الموهوب ببجاية رسالة مؤرخة في 1295هـ ذكر فيها الشيخ الموهوب اولحبيب أنه استعار من "السيد الطيب بن محمد أمزيان إمام تقلت" حاشية بن علي الشريف على علم الفلك كما استعار أيضا من الشيخ العياشي مؤلفا لكاتب مجهول سماه الهاشمية على علم الفلك⁵¹ .

وخلاصة القول أن كتاب معالم الاستبصار جزء من ثروة المخطوطات الإسلامية العربية والأمازيغية التي تزخر بها بلاد القبائل والتي تحتاج منا إلى خطوات هامة، للعناية بها

ابتداءً بفهرستها وترميم المتضرر منها وهو بلا شك كثير، منتشر عبر كل قرى ومدى المنطقة و من ثم التصوير والتحقيق ثم النشر ما يساعد على تجسيد ديمومة تاريخية تجمع المقومات التاريخية المنطقة بالدولة ككل ، فإحياء ذاكرة هذه المنطقة العزيزة لا تفرضه المتطلبات العلمية والمعرفية فحسب بل هو ضرورة ثقافية، خاصة وأن المنطقة تعيش تحديات كبرى على مستوى هويتها الأمازيغية، العربية والإسلامية.

الهوامش:

- 1-الأدب في عصر دولة بني حماد:22
- 2- revue africaine volume 80,Kabylie: 112-113
- 3-أكثر من ثلث المخطوطات العربية في مكتبة الشيخ الموهوب في مجال النحو البلاغة
- 4- المغرب العربي تاريخه وحضارته: 283 .
- 5-Les manuscrits berbères au Maghreb et dans les collections européennes:86
- 6-revue africaine ,volume31, deux chansons kabyles,p:55
- 7-دولة بني حماد:249
- 8-المغرب العربي تاريخه وحضارته:282
- 9- الكامل في التاريخ 8 : 91
- 10-عنوان الدراية:32
- 11-الإحاطة في أخبار غرناطة3: 69،معجم المؤلفين8/215، هدية العارفين2/300
- 12-الضوء اللامع3/370،نيل الابتهاج بتطريز الديباج:185،تعريف الخلف برجال أهل السلف:1/170،هدية العرفين :1/402،معجم الأعلام :35
- 13-نيل الابتهاج:333،تعريف الخلف:2/273،معجم الأعلام:39
- 14-Connaissances actuelles et méthodes de recherches en anthropologie:344
- 15-ibid:344
- 16-تاريخ الجزائر مبارك الميلي:318
- 17-فهرس الفهارس:1/1001
- 18- les manuscrits berbères au Maghreb et dans les collection européennes:66-70,études de document berbères :djamel aissani:83
- 19- مشايخ خالدون محمد بن اسماعيلي:66

20-نفسه:76،67، les manuscrits berbères au maghreb et dans les collection européennes: قد أتى

الشيخ الحفناوي في تعريف الخلف إلى ذكر اثنين من أحفاده محمد والسعيد بن الشريف الشلاطي: 533/2

21-مخطوط معالم الاستبصار:ق:1

22- تعريف الخلف: 1/ 534

23-Le correspondant- recueil periodique:tome /32:205

24-le magasin pittoresque: volume/29:190,revue africaine volume/3:123

25-معالم الاستبصار:ق:1

26-les manuscrits berbères au Maghreb et dans les collection européennes:69

27-تعريف الخلف:1: 534

28-Connaissances actuelles et méthodes de recherches en anthropologie:344

29-معالم الاستبصار:ق:1

30-نفسه:ق:2

تاريخ الجزائر 3: 317

معالم الاستبصار:ق:2-3

les manuscrits berbères au Maghreb et dans les collection européennes:71

ibid:71

35- فهرس الفهارس 2/552، الأعلام:6/139

36-تعريف الخلف:2/148، معجم الأعلام:345، تاريخ الجزائر الثقافي 2: 406

37-البستان: 237 ، نيل الابتهاج: 572شجرة النور الزكية1: 266، تعريف الخلف:1/176، معجم الأعلام:180

38-نيل الابتهاج:171، فهرس الفهارس:1/295

39-تعريف الخلف:1/63، الاعلام4/108، معجم الأعلام:15

40-شجرة النور الزكية 1/386 ، تعريف الخلف2/522، معجم الأعلام:146

41-فهرس مخطوطات الفلك والتنجيم في المتحف العراقي: 176،

42-تاريخ الجزائر الثقافي:410

43-معالم الاستبصار:ق:10

44-نفسه:ق:2-3

45-نفسه:ق:3

46-تاريخ الجزائر الثقافي 2: 401

47-La loi de la giraviation universelle :13,histoire de l'astronomie:16

48-histoire de l'astronomie:17

49-pirre- simon laplace,life in exact science:26,la loi de la gravitation:29,histoire de l'astronomie:17

50-يقصد المذهب العظيم الذي ظهر في سماء فرنسا وإيطاليا وقد اكتشفه الفلكي الفرنسي "شارل ميسي" في الخامس عشر من شهر أوت 1769 وقد افترض "ميسي" أن هذا المذهب يعود للظهور كل عدة قرون ، راجع: international comet quarterly-volume 26/4

51-يبدو أن للمؤلف نسخا عديدة فبالإضافة إلى النسختين الموجودتين في المكتبة الوطنية هناك نسخة في المكتبة الظاهرية بسوريا ونسخة في مكتبة الكونغريس بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد اطلع الدكتور سعد الله على هذه النسخة ورجح أن تكون النسخة الأصل إلا أنها مبتورة، كما اطلع الدكتور سعد الله أيضا على نسخة أخرى من المخطوط يمتلكها الأستاذ علي أمقران السحنوني ، تاريخ نسخها سنة 1205هـ راجع تاريخ الجزائر الثقافي 2: 409

52-الوثائق المخطوطة ضمن مجموع مرقم: dvs08/2

المصادر والمراجع:

- 1-الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ،تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي،ط2، القاهرة،1973
- 2-الأدب في عصر دولة بني حماد أحمد بن محمد أبو رزاق،ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر،1979
- 3-الأعلام خير الدين الزركلي وآخرون طبعة دار الملايين 1998
- 4-البيستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم عناية العلامة أبي شنب الجزائري ،المطبعة الثعالبية، الجزائر 1908م
- 5-تاريخ الجزائر القديم والحديث مبارك الميلي مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر ،د.ط،د.ت.
- 6-تاريخ الجزائر الثقافي أبو القاسم سعد الله دار الغرب الإسلامي ،ط1، 1998
- 7-تعريف الخلف برجال أهل السلف،أبو القاسم الحفناوي ،مطبعة بدير فونتانة الشرقية الجزائر ،1906
- 8-دولة بني حماد ،عبد الحليم عويس،دار الصحوة ط2، 1991
- 6-شجرة النور الزكية ،محمد بن محمد بن مخلوف المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة 1349هـ
- 7-الضوء اللامع للسخاوي ،ط1،دار الجيل بيروت لبنان ،1992
- 8-عنوان الدراية أبو العباس الغبريني تحقيق هادل نويهض ،دار الآفاق الجديدة بيروت
- 9-فهرس الفهارس الكتاني، عناية وإخراج إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي،بيروت ،ط2 ، 1988
- 10-فهرس مخطوطات الفلك والتنجيم بالمتحف العراقي ،أسامة ناصر النقشبندى وضمياء محمد عباس ،دار الرشيد للنشر ،1982 العراق
- 11-الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ، دار الكتب العلمية ،ط1 بيروت 1987
- 12-مشايخ خالدون محمد بن اسماعيلي،الطبعة 4، 2001م
- 13-معجم أعلام الجزائر عادل نويهض مؤسسة نويهض الثقافية ،ط2،بيروت لبنان 1980
- 14-المغرب العربي تاريخه وحضارته رابح بونار ،ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر،1981

15- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كمية الدعوة الإسلامية ، ط1، طرابلس
ليبيا 1989م

16-هدية العارفين إسماعيل باشا البغدادي طبع بعناية وكالة المعارف الجلييلة في مطبعتها البهية اسطنبول 1955م

مصادر الاجنبية:

- 1-revue africaine. volume 31-81-revue africaine.journal de la société historique algérienne par les membres de la société sous la direction du président , jourdan, libraire-éditeur 1865, alger.
- 2-les manuscrits berbères au maghreb et dans les collections européennes ,djamil aissani et djamel-eddin mechehed atelier perrousseaux , méolans-revel (alpes-de-haute- provence)2007
- 3-pirre- simon laplace,life in exact science,charles ,coulston;prinston university library,1997,usa
- 4-hisoire de l'astronomie,association linairienne,france;2007
- 5-la loi de la graviation universelle,springer verlag,france ,2007
- 6-international comet quarterly-volume 26,maik mayer, appalachian state university., 2001
- 7-connaissances actuelles et methodes de recherches en anthropologie,attilio gaudio harmattan ,paris,2010
- 8-le magasin pittoresque:volume/29, edouard charton,prix volume broche,paris1861
- 9-le correspondant- recueil periodique:tome /32,librairie de charles douniol paris,1853